الحلقة 9

معجزات الله التي أيد بها رسله

إعداد: هشام المنشاوي

صبي من نسل نبي الله هارون عليه السلام

«الحياة بعد الموت» معجزة «عزير» الكبرى

- ظن انه لبث يوماً أو بعض يوم فناداه صوت يقول: مائة عام
- آثر أن يتخذ لنفسه مغارة في أحد الجبال المحيطة بالقدس ليقيم فيها
- عاش كارهاً لحياة الذل ويملأ قلبه الأسى لما يلقاه بنو قومه من إهانة
- بلغ الأربعين فأوحى الله إليه أنه سيخرج من هذه الأرض إلى بابل

خراج وترك اهله

قال تعالى : ﴿ أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلمّا تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ البقرة 259.

أما قبل

فحديثنا عن معجزة عزير عليه السلام ، يحتاج إلى تعريف مختصر يسير ، بمن هو عزير ، حتى نجعل لكل أوّل آخر ، ونربط المعجزات بالمصائر .

وعزير عليه السلام صبي من نسل نبي الله هارون عليه السلام ، وفي وقت معجزته هذه كان يقيم مع قومه من بني إسرائيل في بابل ، الذين كثروا بها وتناسلوا بعد أن أخرجهم بختنصر ، وأخذ معظم الأسرى إلى بابل وكان بختنصر هو أول من جاس في ديارهم ، بعد أن أفسدوا في الأرض ، ولذلك فقد حقت عليهم كلمة الله عز وجل : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرّتين ولتعلنّ علوّاً كبيراً × فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعد الله مفعولاً ﴾ . الإسراء 4–5.

كان عزير عليه السلام صبياً نابهاً كارهاً لحياة الذل في أرض بابل ، يملأ قلبه الأسى والحزن لما يلقاه بنو قومه من الذل والعبودية والهوان ، وكان عزير عابداً صالحاً يقرأ التوراة ، ولم يكن في بني إسرائيل آنذاك من يحفظ التوراة عن ظهر قلب سوى عزير ، وكان أبوه وجدّه يحفظانها من قبل .

وقد تزوّج عزير عليه السلام وأنجب ابنين ، ولم بلغ الأربعين من عمره أوحى الله إليه أنه سيخرج من هذه الأرض ، أرض بابل ، التي أسره فيها بختنصر وأن بني إسرائيل سيخرجون أيضاً ، ويعيدون عمارة بلادهم .

ولما كان العزير عاقلاً هادئاً حكيماً ، فإنه لم يبح لأحد بما أوحي إليه لا لبني إسرائيل ولا لغيرهم ، وكان كتمانه هذا حرصاً وخوفاً على بني إسرائيل من أن ينزل بهم شر من أي جانب أو جهة .

وسأل نفسه : كيف يصطحب كل هؤلاء معه ؟ وفي ظل حراسة مشددة ، وهل يغفل هؤلاء الحراس ، الذين وضعهم الملك في كل مكان من بابل ؟

كانت هذه المشكلة التي تؤرق عزير عليه السلام وأحس أنها ستعطل خروجه من بابل ، ولكنه فكر في الأمر مليّاً ، وجمع زوجته وبنيه ، وخادمته الأمينة في ليلة من الليالي ، وفي مكان أمين ، وقد سكن الليل ، وأوى الناس إلى مضاجعهم ، وقال لهم : لقد قررت الرحيل .

فقالت الزوجة : إلى أين ؟ فقال عزير : إلى الأرض المقدسة ، قالت الزوجة : إن هذا الأمر غاية في الصعوبة ، ونحن نحاط بهذا الكم من حراس بختنصر ، ولكن عزير الذي أوحي إليه أصرّ أن يخرج مهما كان الثمن ، ذلك لأنه رأى في الخروج تنفيذاً لأمر الله عز وجل .

فقال لهم عزير عليه السلام : لقد أوحي إليّ منذ ثلاثة أشهر ، وها هي التوراة في قلبي أحفظها ، فهي كلام الله ، تنير لي الطريق إن شاء الله .

طلبت الزوجة عندئذ من زوجها عزير أن يعلم بني إسرائيل بما أوحي إليه من الله عز وجل ، حتى يستبشروا وتقوى عزائمهم ويتخلصوا من الذل الذي اعتادوا عليه منذ أن اجتاحهم بختنصر بجيوشه القاسية الفتاكة .

وقالت الزوجة والأبناء : إن خروجك وحيداً لن يعمّر الأرض فإنك لن تجد هناك من يعينك على ذلك ، ولن تجد أيضاً هناك من تعلمه التوراة ، وبقاؤك معنا سيفيدنا لأننا سنتعلمها منك .

سألت الزوجة : وماذا أعددت لركوبك ؟ قال : لقد اشتريت حماراً جلداً قوياً منذ أيام لهذا الغرض ، فقالت : وأين هو ؟ قال : تركته عند صديقي ، وواعدته أن يلقاني به الليلة ، خارج أسوار المدينة ، قالت : وهل علم صديقك بنبأ رحيلك ؟ ، فقال عزير : نعم ، علم بكل شيء ، وكان أول من آمن بنبوّتي ، وسيكتم أمري كله إن شاء الله ، كان الفراق صعباً بالنسبة للزوجة والأولاد والخادمة ، وكان وداعاً هامساً ، حاراً ، هادئاً .. وخرج عزير .

بدء المعجزة

مضى عزير عليه السلام في رحلة طويلة شاقة ، بعد لحظات خوف وترقب أثناء خروجه من بابل وقد أحاطها الحراس والجنود في كل مكان .

وبعد طول مسير وكثير عناء ، وجد العزير نفسه في الأرض المقدسة التي طالما تاقت نفسه لرؤيتها ، فلما دخل وجد شيئاً عجيباً ، لم يجد آثاراً للعمران ، بل وجد الخراب جاثماً عليها منذ ثلاثين سنة مضت ، منذ أن خرّبتها جيوش بختنصر الذي كان قد اقتحم دمشق ، وسار منها إلى بيت المقدس ، وتذكّر عزير ملك بني إسرائيل الذي خرج إليه ، وقدّم له الطاعة وطلب منه الصلح ، وأعطاه من الأموال والجواهر والأشياء النفيسة ما أرضاه ، ويومها طلب بختنصر بعض أعيان بني إسرائيل ليكونوا رهائن عنده ضماناً لاستمرار الصلح ، وعدم التمرّد.

وتذكّر أن أهله بني إسرائيل لما نزل بختنصر فزعوا ، وتفرّقوا ، وأغلقوا دورهم عليهم ، فلما صالحه الملك وأعطاه الرهائن وجلا عن البلاد بجيشه ، خرجوا من جحورهم غاضبين يلومون ملكهم على الصلح ، ويعلنون أنهم كانوا قادرين على قتال عدوّهم ، وانزال الهزيمة به ، وثاروا على ملكهم وقتلوه ، ونقضوا الصلح مع بختنصر .

وتذكّر كذلك لما رأى الخراب أن بختنصر لما علم بما حدث منهم عاد إلى بيت المقدس ، فتحصنوا بداخلها ، فحاصروها حصاراً شديداً ، ثم قام بدك أسوارها بما يقذفه عليها من مدمّرات ، حتى تهدّمت ، فاندفع جيشه وخرّب المدينة ، وقتل النساء والأطفال ، وخربوا الدور والزروع والقرى وقتلوا وأسروا كل من وصلت إليه أيديهم .. حتى خرّبت الديار ، وكثرت الدماء ، وتناثرت الأشياء وهرب من هرب وأسر من أسر ، وهرب منهم من هرب إلى مصر ، وإلى مكة وإلى يثرب وجهات أخرى ، وبقي بختنصر ليأتي على البقيّة الباقية من هدم للبيع والمعابد وإحراق كل ما وقع له من نسخ التوراة ، وقتل الشباب من الأسرى القادرين على حمل السلاح ، واستبقى النساء والأطفال عبيداً عنده وخدماً ، وغادر البلاد بعد تركها خراباً .

وطاف عزير عليه السلام مدينة الأشباح ، وقد شغله هذا الماضي المفجع المحزن والحاضر وما سيكون عليه المستقبل ، سأل نفسه عدة أسئلة : أتصبح هذه الأرض القفراء عامرة ؟ أتصير هذه يوماً من الأيام ، معمورة الأسواق والندوات والمجالس ، آهلة بالسكان والأطفال والنساء والبيوت ؟ وقد أوحى الله إليه أنه سبحانه عز وجل سيعيدها سيرتها الأولى فتدب فيها الحياة ، وتنشط الحركة وتقوم التجارة ، ويزدهر نشاط الناس بالزراعة والصناعة .. صمت عزير عليه السلام قليلاً وتساءل في عجب ﴿ أنّى يحي هذه الله بعد موتها ﴾ البقرة 259.

من كل هذا الجو الموحش آثر عزير أن يتخذ لنفسه مغارة في أحد الجبال المحيطة بالقدس ليقيم فيها ، وحث حماره فمشى ، وعند أحد البساتين توقف عزير عليه السلام وصنع لنفسه سلة ملأها عنباً وتيناً ، وعصر بعض العنب ، وجعله معه في إناء من الجلد ليشربه .

وظل عزير عليه السلام يقول : كيف تعود الحياة إلى سائر بني إسرائيل وها هي صامتة صمت الزمن أمامي ؟!

ظل عزير عليه السلام على هذه الحال ، حتى أسلمه التعب والتساؤل والرغبة في المعرفة إلى نوم عميق عمق الزمن الذي طال ، ثقيل ثقل السنين التي مضت ولم يشعر بها عزير أبداً .

وفي نومه العميق أو في نومته الصغرى ، نام نومة كبرى ، لقد قبض الله روحه ، ولم يعد عزير يشعر بشيء مما حوله فهو في يد العناية الإلهية ، تنصرف إلى ما تشاء ولا رادّ لمشيئة الله لا في الأرض ولا في السماء .

العودة

مضت السنون سريعة خاطفة عاماً وراء عام ، ومضى على عزير عليه السلام من بابل عشرة أعوام ، انتظرت فيها زوجته وبنوه مشيئة الله عز وجل التي تتيح لهم الخروج من بابل حتى يلحقوا به في الأرض المقدسة ، ولكن طال انتظارهم ، ولم يحدث شيء ، وتلاحقت الأعوام حتى بلغت أربعين عاماً ، ولم يخرج بنو إسرائيل ولم تأت أخبار عن عزيراً ، ويئسوا من العودة إلى الأرض المقدسة .

وفي هذا اليوم المشهود لبني اسرائيل والذي جاء بعد مضي سبعين سنة على خروج عزير عليه السلام من بابل ، في هذا اليوم خرج المنادي ينادي في شوارع بابل : من أحبّ أن يخرج من بني اسرائيل إلى بلاده فليخرج ولا حرج عليه في ذلك .

فخرج بنو إسرائيل مهاجرين إلى بلادهم ، وهناك هالهم ما رأوه من خراب ودمار ، ولكنهم شمّروا عن ساعد الجد ، فغرسوا وزرعوا ، ودبّت الحركة في المدينة التي أصبحت أكثر نظافة ونظاماً عما قبل ، وعادت الحياة تدب من جديد في أرجائها ، وخرجوا إلى القرى المحيطة بها فعمروها ، وبدأ التجار عملهم ، فاستؤنفت التجارة بين القرى ، وبدأ أرباب الصناعة في تشغيل صناعاتهم وظهرت المساكن الجديدة هنا وهناك ، وامتدت الأيادي للبناء ، وكان الجميع في سعادة وهم يبنون ويعمّرون ويشعرون بالحريّة ، ولم يعد الذل يطاردهم كما كان في بابل .

ومضت ثلاثون عاماً أصبحت فيها البلاد عامرة ، وقد أثمرت صناعاتهم وعمّرت قراهم ، وانحسرت آثار الكارثة التي مرت بهم تماماً ولم يعد لها أثر يذكر .

ظهور المعجزة

كانت زوجة عزير عليه السلام قد كبرت وأخذ منها الزمان ما أخذ ، وكذلك خادمته الصغيرة ، وقد بحثوا جميعاً في أول مجيئهم مع بني إسرائيل عن عزير في كل مكان بالمدينة ، فلم يجدوا له أثراً ، وأرسلوا إلى المدن والقرى للبحث عن عزير ولكن دون جدوى .

وأثناء سؤالهم هذا صرفهم الله عز وجل عن المغارة التي سكنها عزير ومات فيها ، وانصرفت مشيئة الله أن لا يقترب بشر من هذه المغارة ، لأمر عنده كان مفعولاً ، واكتملت مائة عام على وفاة عزير ، فتحرّك الجسد الذي أصبح تراباً ، وأحياه ربه بعد مائة عام ، ردّ فيه الحياة ، فاجتمعت عظام جسمه ونبض قلبه من جديد فاعتدل جالساً ، ونظر حوله هنا وهناك فوجد إلى جواره إناء العصير ، وطعامه لم يحدث له شيء وسمع منادياً ينادي ﴿ كم لبثت ﴾ كم من الوقت قضيت في النوم ؟ .

نظر عزير عليه السلام حوله فوجد الشمس قد بدأت تعلو من المشرق ، فأجاب على الفور ﴿ لبثت يوماً أو بعض يوم ﴾ أي نمت يوماً أو أقل من يوم ، فوجد الصوت الذي ناداه يقول : ﴿ بل لبثت مائة عام . ﴾ .

دهش عزير عليه السلام وفزع مما سمع ، وردّد في ذهول : مائة عام ؟! وأعاد النظر إلى سلة الفاكهة ، فوجد العنب طازجاً كأنه مقطوف لتوه وكذلك التين ، والعصير في الإناء الجلدي كما هو لم يتغيّر ولم تصدر عنه رائحة غير مقبولة ، ولم يتبخر ولم يتجمّد ، ولم يدركه أي تحول في الطعم أو اللون .

تذكر عزير شيئاً ونظر هنا وهناك بسرعة ، وتطلع إلى الأفق هناك خلف الأشجار ، وكأنه يبحث عن شيء ، لقد تذكّر حماره ، أين هو ؟ .. لا بد أنه هرب ، ووقعت عيناه على عظام بالية في المكان الذي ربطه فيه ، وربما تساءل في نفسه ، ولم الحمار ، لقد أصبح عظاماً نخرة بعد أن أفناه الدهر ؟

وقف عزير عليه السلام بين فاكهته وطعامه الذي لم يتغيّر وبين حماره الذي فني وأصبح عظاماً لطول ما مرّ به من السنين ، وبدأ يردد : إنها مائة عام ، حقاً إنها مائة عام ، كانت كافية بافناء جلد الحمار وعظامه ، ولحمه ، لقد بليت حوافره وزالت وأصبح مكان عينيه حفرتان في عظام الرأس المجوّفة .

وانصرف عزير عليه السلام للتسبيح والصلوات حتى سمع قول الله عز وجلّ : ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ البقرة 259.

ومضى العزير إلى المدينة يتطلع إلى أخبارها وكيف أصبحت بعد مائة عام ، وماذا يفعل الناس : أهم سعداء أم بهم همّ وما هي أخبار أسرته ؟ هل هناك أحد منهم على قيد الحياة ؟

دخل عزير المدينة وفي رأسه مئات الأسئلة يريد إجابة عليها ، فإذا به يرى مبان جديدة ، رائعة التقسيم والبنيان على غير ما كان يرى منذ مائة عام ، وشوارع وخططاً غير التي كان بعهدها في القديم ، وأخذ ينظر هنا وهناك ، ويتنقل في طرقاتها وشوارعها بحثاً عن منزله القديم الذي تركه منذ أكثر من مائة وعشرين سنة ، ولما وجد نفسه في مكان جديد عليه وقد تغيّر تماماً عما عهده قبل مائة عام ، هداه فكره إلى أن يسأل الناس المارّة في الشوارع .

تحدّث عزير عليه السلام وقال لأحدهم : أين دار العزير ؟ فأجابه الرجل : لا نعرف داراً للعزير ، ولكن يوجد هنا ديار أبناء العزير ! انظر إلى هذه الدور المتراصّة ، إنها دور أبناء العزير .

مضى العزير إلى المكان حتى جاء إلى دور أبنائه ، وعند أوّل باب من أبوابها طرق الباب طرقاً خفيفاً ، فسمع صوتاً من الداخل يقول : من الطارق ؟ من بالباب ؟ فأجاب على الفور : أنا العزير!! ، فقال الفتى الذي ردّ عليه : ماذا تقول ؟ العزير! أتسخر منا يا رجل ؟

فقال العزير : افتح الباب يا بني وستعرف أنني لا أكذب عليك ولا أسخر منك .

نفذ ما أمره الله به

مكث خارج مدينته

عاد فوجد كل شيء تغير

قومه قاموا بتعمير المدينة

الحياة تبدلت